من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (3)

بلاغة التَّعريف والتَّنكير في القُرآن الكريم

– النكرة «كلُّ اسمٍ شائعٍ في جنسه، لا يختصُّ به واحدٌ دون آخرَ»[1]. والغرضُ من إطلاقها ابتداءً أحدُ أمرين: إمَّا إرادةُ الوِحدة، أو إرادة الجنس؛ فإرادة الوحدة نحو قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾[يس:20]، وإرادة الجنس نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾[البقرة:221][2].

– وأمَّا المعرفةُ؛ فإنَّها ما وُضع لشيءٍ معيَّنٍ، «وجملة المعارف سبعة: المضمر، والعلم، واسم الإشارة، والموصول، والمعرف بالأداة، والمعرفة بالنداء، والمعرف بالإضافة»[3]. وقد نظمها بعضُهم في قوله:

إنَّ المعارف سبعةٌ تشفي العلل * أنا صالحٌ من ذا الفتى ابني يا رجلْ

– وقد تباينت طريقة تعامل النُّحاة والبلاغيين مع قضيَّة (التَّعريف والتَّنكير)؛ فالنُّحاة عندهم التَّنكير هو الأصل، والتَّعريف فرعٌ عنه. فيما البلاغيَّون يبدؤون الحديث عن التعريف؛ لأن الأصل في المسندِ إليه أن يكون معروفًا، ثمَّ ينتقلون من بعدُ إلى المسندِ وتعريفه وتنكيره[4].

لكنَّ الأمرَ في البيان القرآنيِّ لا يخضعُ لأصلٍ وفرعٍ؛ إذ توظيفُ الكلمة في التَّركيب القرآنيِّ مُعَرَّفةً أو مَنَكَّرةً يرجع إلى دلالة السِّياق، وما تُكسِبُه هذه الكلمة (بحالتيها؛ التعريف والتنكير) لهذا التركيب من معنًى. يقول الزملكانيُّ رحمه الله (ت:651هـ) في هذا الصدد: «قد يظنُّ ظانٌّ أن المعرفة أجلى، فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق . وعلة ذلك أن النكرة ليس لمفردها مقدار مخصوص، بخلاف المعرفة فإنها لواحد بعينه، يثبت الذهن عنده ويسكن إليه»[5].

ومن الأمثلة الَّتي تدلُّ على جماليَّات (التعريف والتَّنكير) في القرآن الكريم ما يأتي:

---

[1] ابن آجروم، الآجرومية، ص14.

[2] يُنظر: السامرائي، معاني النحو، ج1، ص39.

[3] ابن مالك، شرح الكافية الشافية، ج1، ص222.

[4] يُنظر: نوح الصرايرة، التعريف والتنكير بين النحويين والبلاغيين، ص71.

[5] الزملكاني، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص136.

1- قول الله ﷻ: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى (حَيَاةٍ) وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾[البقرة:96]. تنكير (حياةٍ) هنا؛ للتَّحقير، لأنَّ الكلام فيها عن اليهود وذمِّهم وتوبيخِهم لحرصهم على الحياة الدنيا، ولحبهم الازدياد منها على أي حالة، ولو كانت حياة ذليلةً حقيرةً، فالمهمُّ عندهم أن يعيشُوا شيئًا يُسمَّى (حياةً) وانتهى الأمر، وسيَّانِ عندهم من بعد ذلك أن يكونوا أعزَّاء مُكرَمين، أو أذلاَّءَ مُهانين.

2- قوله سبحانه: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ (حَيَاةٌ) يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[البقرة:179] والغرضُ من تنكيره هنا (لفظ حياة) عكس الأول، وهو التَّعظيم؛ تعظيم الحياة النَّاجمة عن القصاص؛ ذلك أنَّ القاتل إذا علم أنَّه إذا قَتَلَ قُتِلَ، انكَفَّ عن القتلِ، ودُرِأَ عن النَّاس شرٌّ عظيمٌ، وقد كانت العربُ قديمًا تقول مَثَلاً مضمونه قريبٌ من معنى الآية، وهو قولُهم: (القتلُ أَنْفَى للقتلِ) ومعناه مُقاربٌ لما ذكرنا في معنى الآية.

ثمَّ في تنكير (حياة) أيضًا معنًى آخرُ لطيف؛ وهو أنها لو عُرِّفت، فقيل: (لكم في القصاص الحياة)، لوقع في الوَهَم أنَّ أصل الحياة مُستفادٌ من القصاص، والحقيقة غيرُ ذلك؛ إذ الحياةُ المستفادة من القصاص إنما هي بعد القصاص لا في جميع الوقت، والتَّنكيرُ دلَّ على هذا التَّبعيض[1].

3- قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ (نَفْحَةٌ) مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾[الأنبياء:46]، والكلامُ هنا عن كلمة (نفحةٌ) الَّتي لم ترد في القرآن الكريم إلاَّ في هذا الموضع، وتنكيرها في هذا السياق دال على التقليل؛ الذي يُستفادُ كذلك من بناء المرَّة (فَعَلَ فَعْلَةً = نَفَخَ نَفْخةً)، ومن دلالة الكلمة ذاتها؛ لأنها مأخوذةٌ إمَّا من قولهم: (نَفَحتِ الريح) إذا هبَّت أيَّ هَبَّةٍ، أو من قولهم: (نفح الطِّيبُ) إذا فاح فوحةً. واستعمالها في الشَّرِّ مُستعارٌ، إذ أصلها الإستعمال في الخير، يُقال: (له نفحةٌ طيبةٌ) أي: هَبَّةٌ من الخير[2].

«وفي تنكير التقليل في (نفحةٌ) ملحظ أسلوبي لطيف، فإذا كانت النفحة الواحدة من العذاب تذكرهم بالويل المنتظر؛ وبالظلم الذي اكتسبوه، فما بالهم بما وراءها من لفحات العذاب؟ والتنكير

---

[1] يُنظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص288-289. و: الخالدي، إعجاز القرآن البيانيُّ، ص232-233.

[2] يُنظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج2، ص38.

هنا في إفادته التقليل، يقوم أيضاً على إفادة التوبيخ والتنبيه على أن مسّ قدر يسير من العذاب لأمثال هؤلاء حقه أن يكون في حكم المقطوع به»[1].

4- قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ (الْحَسَنَةُ) قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ (سَيِّئَةٌ) يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف:131]، والكلام في هذه الآية عن تعريف كلمة (الحسنة)، وتنكير كلمة (سيئة)، وسِرِّ التمايز بين اللَّفظين.

والجواب هو: أنَّ الآية تُخبر عن حالِ فرعون وملئه مع نبيِّ الله موسى عليه السلام، وتبين مدى عنادهم رغم كثرة الحسنات والخيرات التي تأتيهم، وقلَّة السيئات والمصائب التي تصيبهم ابتلاء من ربهم. لذا جاء لفظ (الحسنة) مُعَرَّفًا؛ للدلالة على كثرة وقوعها وتحققها وعظمها، لدرجة أنهم باتوا يعفونها ولا يستطيعون إنكارها، إلاَّ أنهم ينسبونها لأنفسهم، ويعتبرونها حقا من حقوقهم.

وفي المقابل، جاء لفظ (السيئة) مُنَكَّرًا؛ للدلالة على نُدرة وقوعها عليهم، ولأنها غير مألوفةٍ لهم، وكذا لتدلَّ على أنهم يتطيرون بأي شيءٍ يُصيبهم، ولو صغر حجمه وقل ضرره[2].

قوله سبحانه في سورة مريم عن يحيى عليه السلام: ﴿**(وَسَلَامٌ) عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾[مريم:15]، مع حكايته عز وجل قول عيسى عليه السلام: ﴿**(وَالسَّلَامُ) عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾[مريم:33]، والحديث هنا عن تنكير (سلامٌ) في الآية الأولى، وتعريف (السلام) في الآية الثانية.

والَّذي ينبغي أن يُعلَمَ ابتداءً، أنَّ الآية الثانيةَ؛ دعاءٌ من عيسى عليه السلام لنفسه بقوله: (والسلام عليَّ)، وإنما عدل عن التنكير إلى التعريف لثلاثة أمور:

- أولها: التبرك بذكر الله عز وجل؛ لأن من أسمائه سبحانه (السلام).

- ثانيها: دعاء الله عز وجل وسؤاله بمضمون هذا الاسم؛ وهو السلامة، إذ كل اسم من أسمائه سبحانه يتضمن صفةً، مثل (الرحمن الرحمة، العليم العلم... وهكذا).

- ثالثها: العموم والإستغراق الذي تُفيدُه (ال)، كأنَّ عيسى عليه السلام قال: السلام كلُّه عليَّ.

فيما الآية الأولى: (وسلامٌ عليه) المتكلِّمُ فيها هو الله عز وجل، وهو المسَلِّمُ على يحيى عليه السلام، ولا يصحُّ أن يتعلَّق بها غرضٌ من الأغراض الثَّلاثة المذكورة آنفًا؛ فلم يقصد تبرُّكًا بذكر الاسم، ولا طلبًا

---

[1] أسامة عبد العزيز جاب الله، مقال بعنوان (جماليات التعريف والتنكير في الكلمة القرآنية)، شبكة الفصيح.

[2] يُنظر: عبد الله الأنصاري، مقال بعنوان (التعريف والتنكير في القرآن)، موقع البيان.

للسلامة، ولا عمومًا للتحيَّة؛ لأن سلامًا منه سبحانه كافٍ عن كل سلام، ومغنٍ عن كل تحية، ومُرْبٍ عن كل أمنية[1].

5- قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا (بَلَدًا) آمِنًا**﴾[البقرة:126]، مع قوله سبحانه في سورة إبراهيم: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا (الْبَلَدَ) آمِنًا**﴾[إبراهيم:35]، التحليلُ النَّحويُّ يقول أنَّ فعل الدُّعاءِ (اِجعلْ) في الموضعين فعلٌ متعدٍّ إلى مفعولين؛ إلاَّ أنه في الآية الأولى مفعوله الأول لفظ (هذا) ومفعوله الثَّاني (بلدًا)؛ فكأنَّه قال: (ربِّ اجعل هذا المكانَ بلدًا). أمَّا في الآية الثانية فالمفعول الأول في الحقيقة هو لفظ (بلدًا) واسم الإشارة (هذا) توطئةٌ وتمهيدٌ له، والمفعول الثاني هو (آمنًا)، فكأنه قال: (ربِّ اجعل البلد آمنًا)[2].

وعلى ذلك يكون تنكير (بلدًا) في آية البقرة دلالةً على أنَّها قبل بناء الكعبة، ولما لم تصرْ تلك البقعة (بلدًا)، فلمَّا دعا اللهَ إبراهيمُ ﷺ أن يجعلها بلدًا واستجاب الله دعاءَه، أعادَ دعاءَ الله ﷻ أن يجعل هذا البلد آمنًا؛ وعرَّفَ (البلدَ) لأنَّه بعد بناء الكعبة وعمران البقعة وأُهولها بالنَّاس.

---

[1] يُنظر: أسامة عبد العزيز، جماليات التعريف والتنكير في الكلمة القرآنية، شبكة الفصيح.

[2] يُنظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص78. و: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، ج1، ص50.